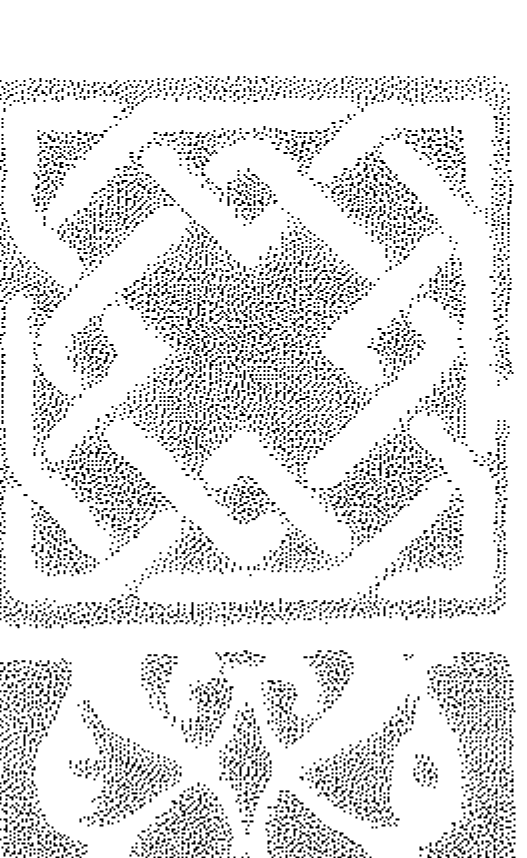
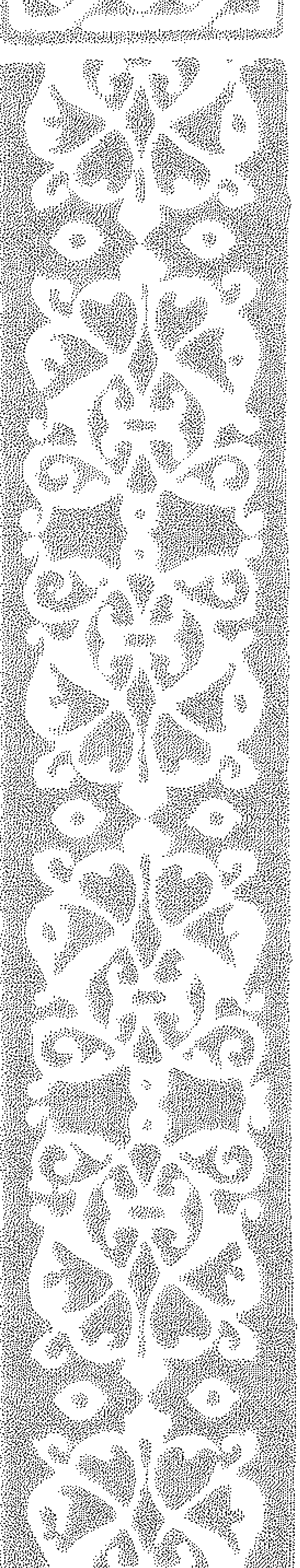
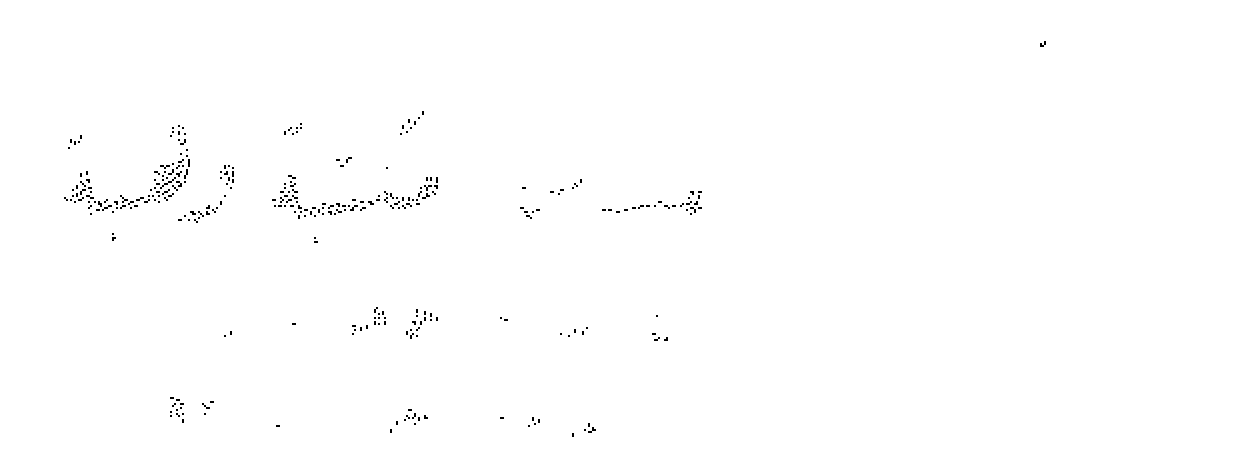
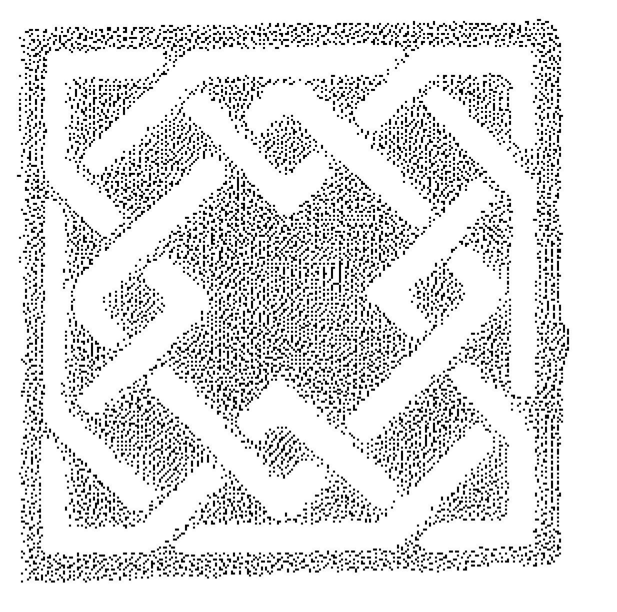




الدكتور محمد البهي

القرآن
في مواجهة المادية





الناشر: مكتبة وهبة

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

الدكتور محمد البهي

القرآن
في مواجهة المادية

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

رمضان سنة ١٣٩٨ هـ ـ أغسطس سنة ١٩٧٨ م

دار النضامن للطباعة
٢٢ شارع سامي ـ ميدان لاظوغلي
القاهرة ـ تليفون ٣٠٥٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن .. في مواجهة المادية

* للمادية سمات معينة فى تصرف الانسان ، أو فى سلوك المجتمع وعلاقات أفراده بعضهم ببعض ، لا تختص بفريق من الناس دون فريق ، ولا بجيل من البشر دون جيل آخر • توجد فى الانسان أو فى المجتمع اذا كان نمط تصرفه فى الحياة أو نمط سلوكه ، نمطا يعبر عن المادية فى جوهرها ، وتوجد فى كل زمان ومكان اذا كان هذا النمط فى السلوك سائدا •

المادية ملازمة للأنانية • فالطفل أنانى بطبعه ، وفى الوقت نفسه : مادى • على معنى أن تفكيره يدور حول الذات ، ووجدانه يتصل بما يمس الذات اتصالا وثيقا • وعلى معنى أيضا أن تفكيره ووجدانه يرتبطان بالمحسوس ، دون المعنوى • فهو لا يعرف ذاتا غير ذاته •• لا يفكر بسعيه فى ذات وراء ذاته ، ولا يتعاطف بوجدانه مع ذات ثانية بجانب ذاته • لا يعرف المبادىء العامة • وانما يعرف أجزاء منثورة فى الوجود حوله • والأجزاء المنثورة محسوسة ومتشخصة •

ظاهرتان تلازمان الطفل فى طفولته : التركيز حول الذات •• والاستجابة للمحسوس دون المعنوى • وبسبب الظاهرة الأولى يقال عن الطفل : انه نفعى وأنه يؤثر البقاء الفردى على البقاء النوعى • أى أنه يؤثر نفسه على أجيال قادمة ، ويحرص على ذاته قبل حرصه على وطنه أو قومه •

وبسبب الظاهرة الثانية يقال عن الطفل أيضا : انه يتأثر بالمحسوس فى ألوانه ، وفى أحجامه ، وفى كمياته • وقلما يتأثر بالنوع فى جودته واتقانه ، وفى بقائه واستمراره •

واذا بلغ الانسان بلوغا جنسيا وظل أنانيا ، وظل أيضا متأثرا بالمحسوس وحده يقال عنه : انه انسان مادى • أى لم ينتقل من دائرة الطفولة البشرية الى دائرة أرقى • وهى دائرة الرشد الانسانى •

والمادى اذن هو النفعى •• هو الأنانى •• هو الذى يؤمن ويتأثر بالمحسوس وحده • تفكيره تفكير أنانى ، وحسى • ووجدانه وجدان أنانى ، وحسى كذلك • ومعنى أن وجدانه وجدان أنانى وحسى : أنه ينفعل فيستريح نفسيا أو يغضب نفسيا للأمر الذى يتصل بذاته فقط • وكذلك يقبل ما هو محسوس ويرفض ما ليس بمحسوس •

واذا طلب المعارضون لرسالة الرسول عليه السلام : أن يكون دليلهم على رسالته دليلا حسيا فهم ماديون ، يقفون بايمانهم عند حد المحسوس والمادى وحده • يرفضون القرآن كمعجزة ودليل على صحة رسالته ، مع أن الله سبحانه قد تحدى به جميع القوى المعهودة وغير المعهودة فى قول الله تعالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا** » (١) • ويطلبون عدا القرآن واحدا من هذه الأمور المحسوسة التى يحكيها القرآن عنهم فى قول الله تعالى :

---

(١) الاسراء : ٨٨ ، ٨٩

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنـا من الأرض ينبوعا ٠
« أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ٠
« أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا
« أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ٠
« أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ،
« قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » (١) ٠

* * *

* والمفروض فى تطور الانسان كفرد : أن ينتقل بالتدريج من مرحلة طفولته ٠٠ الى مرحلة رشده الانسانى يتميز فيها بأمرين :

أولا : بادراك « الغير » بجانب « الذات » ٠ ومن هنا تأتى بداية « المشاركة » ٠ أى مشاركة الفرد للفرد والانسان للانسان فى المصالح والوقاية من الأضرار ٠

وتنتقل من الاعتراف به وبوجوده ٠٠ الى تبـادل الاحساس والشعور معه ٠٠ الى تبادل المصلحة والمنفعة ، أو تبادل الوقاية من الضرر ٠

ثانيا : عن طريق ادراك « الغير » وتبادل الشعور ، والمنفعة ، والوقاية من الضرر ، معه : يبدأ الانسان فى تطوره يدرك القيم أو المبادىء العامة التى تحكم العلاقة بينه وبين « الغير » ٠

---

(١) الاسراء : ٩٠ ـ ٩٣

فاذا أدرك الانسان روح المشاركة مع الآخرين ·· وأدرك مع ذلك القيم أو المبادىء التي تحقق مصلحة الأفراد بعضهم مع بعض، كان الانسان رشيدا ، أو كان فى مستوى تطوره قد بلغ النضوج الانسانى · وهو نضوج فكرى ·· ووجداني ·· وارادى ·· فيسع تفكيره ، ووجدانه ، الآخرين معه · كما تمتد ارادته للعمل لمصلحة الأغيار ، دونه ·

وعلى شاكلة الانسان المفرد : يكون المجتمع · فمستوى طفولة المجتمع : أن يكون تفكير الأكثرية فيه تفكيرا أنانيا ، أى يدور حول ذواتهم ، كل على حدة · وأن يكون ايمانهم وقفا على المحسوس، وما هو مادى فقط ·

فاذا ارتقى المجتمع وتطور امتد تفكير الأكثرية فيه : الى التفكير فى « الذات » و « الغير » معا ·· وامتد وجدانهم ليشمل الذات وما بعدها من المشاركين لها فى الوجود ·· وامتدت الارادة الى العمل والسعى من أجل الذات ، والذوات الأخرى عداها ·

والفرد الذى يعيش فى طفولته ، ولا يخرج منها الى مرحلة الرشد الانسانى : هو فرد أنانى ·· وفرد بدائى ·· وفرد مادى ·· وفرد غير حضارى حضارة انسانية ، مهما كان عمره ، ومهما كان ثراؤه ، ومهما كانت عصبيته وقوته المادية ·

والمجتمع الذى تسيطر النزعة الفردية على الأكثرية فيه ، وهى نزعة الأنانية والمادية : مجتمع يعيش فى مرحلة الطفولة البشرية ·· أو هو مجتمع أنانى ·· أو بدائى ·· أو مادى ·· أو غير حضارى·· أو جاهلى ·

والمجتمع الجاهلي اذن هو مجتمع تسيطر النزعة الفردية ، أو الأنانية ، أو المادية ، أو غير الحضارية ، على الأكثرية فيه . **« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الأمر من شيء ، قل ان الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم »** (١) •

المجتمع الجاهلي هو الذى لا يدرك الفرد فيه « روح المشاركة » مع الآخرين •• وبالتالى لا يدرك القيم والمبادىء التى تحكم العلاقة بين الأفراد بعضهم مع بعض : لا يدرك التعاون •• والتواد •• والمحبة •• والعدل • وإن أدركها مفهوما لا يطبقها عمليا • يقع تحت تأثير الهوى ويحكم به : **« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وان كثيرا من الناس لفاسقون • أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون »** (٢) •• فحكم الجاهلية حكم الأهواء والرغبات،بخلاف حكم الله • فهو حكم القيم والمبادىء العامة •• يقع الحكم الجاهلى تحت تأثير الأنانية وايثار الذات ، مهما كان الوضع باطلا • فالتفكير أنانى ، والوجدان أنانى : **« اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية**

---

(١) آل عمران : ١٥٤ ــ فهذه الطائفة بتفكيرها فى نفسها فقط• **« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية •••• يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا »** •• كان تفكيرها فرديا أو أنانيا • ولذا كانت جاهلية •

(٢) المائدة : ٤٩ ، ٥٠

حمية الجاهلية (حمية الاعتزاز بالأنفس والغضب ، دون البحث عن حق أو باطل ٠٠ حمية الركون الى الغضب ولو من أجل باطل) **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمه التقوى وكانوا أحق بها واهلها ، وكان الله بكل شيء عليما »** (١) ٠٠ فالمؤمنون كان لديهم التروى ، وقد عمهم الهدوء وجنبهم حمية الجاهلية ، عندما أعلنوا قبولهم لشروط الصلح فى الحديبية ٠ وقد كان من بينها : أنه اذا دخل مسلم مكة قبل العام المحدد لدخول المسلمين ، وأبى أن يعود الى المسلمين خارجها فله الحماية من مشركيها ٠ واعتبر بعض المسلمين هذا الشرط دنية ٠

أبعد الله عن المؤمنين فى هذا الصلح : حمية الجاهلية والتعصب فيما يعود على الذات وحدها ، دون نظر الى الحق أو الباطل فى ذاته ، وأنعم عليهم بتجنيبهم هذه الحمية ، لأن صلح الحديبية الذى تم وقبله المسلمون كان هو الفتح الحقيقى لمكة ، والنصر المبين على الكافرين ، لدين الله ٠

المجتمع الجاهلى ــ لأن النزعة المادية تغلب على أفراده ــ يعتز بالقوة المادية فى الرجال ، والأموال :

« **قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد** » (٢) ٠

« **وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين** » (٣) ٠

« **وقالوا من أشد منا قوة** » (٤) ٠

المجتمع الجاهلى لأنه يعتز بالقوة فى العصبية والرجال ، أو فى

---

(١) الفتح : ٢٦ (٢) النمل : ٣٣

(٣) سبأ : ٣٥ (٤) فصلت : ١٥

الأموال : يفخر بصاحب الثراء فى الأموال ، ويأنف أو يسخر من الضعفاء والفقراء :

« **قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** » (١) (وهم الضعفاء أو الفقراء) •

« **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** » (٢)

المجتمع الجاهلى ـ لأنه يقع تحت الاغراء بالمحسوس والمادى ـ يؤثر ما يحس وما هو مادى فى القبول أو فى الرفض • فالرجل يحاول أن يؤثر على الآخرين بمظهره ، وليس بمخبره• والمرأة تحاول بزينتها أن تفتن الرجل ، وليس بمستواها الانسانى : « **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** (وهى التى كانت على عهد الاسلام• والقرآن فى نهيه الآن يحول دون أن يتحول الأمر فى الاسلام الى جاهلية كالتى سبقت وهى التى سميت هنا بالجاهلية الأولى) **وأقمن الصــلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** » (٣) •• فالآية اذ تنهى نساء الرسول عليه السلام ، ونساء المؤمنين معهن ، عن التبرج وابراز الزينة للتأثير على الرجال ، فانها تشير الى أن هذا التبرج هو من صفات الجاهلية ، وأعراض المادية ، أى من صفات المجتمع غير الحضارى الذى يقف أفراده بنظرتهم عند حد المحسوس وحده ، ولذا اذ تأمرهن الآية باقامة الصلاة وايتاء الزكاة فانما تأمرهن بما يتصل بالقيم والمبادىء، وبالعبادة التى قد تحررت فعلا من الأنانية والمحسوس معا • فالزكاة عبادة تعبر عن المشاركة دون الأنانية • والتوجه الى الله فى الصلاة ، بعيد كل البعد عن مواجهة المحسوس ولقاء الأمر المادى •

* * *

---

(١) الشعراء : ١١١ (٢) الزخرف : ٣١

(٣) الأحزاب : ٣٣

دور الإسلام

فجاهلية الانسان هي بدائيته،وارتباطه في التصرفات والسلوك بأنانيته ، وتأثره بالحس والمشاهد وما تدركه الأبصار ، وتسمعه الآذان ، وتمسكه الأيدي . يؤثر الجاهلي الكم على النوع ، والمظهر على المخبر .

وجاهلية المجتمع هي بقاؤه في دائرة الأنانية ، وعدم ادراك أفراده للآخرين ادراكا يجعل منهم شركاء في البيئة ، والوجود ، والمجتمع .

وأهم مظاهر المجتمع الجاهلي : الوقوف عند حد المحسوس والمادي يلعب الاقتصاد ، والعصبية ، والقوة المادية دورا رئيسيا في حياة أفراده . والرابط الذي يربط بين أفراده ليس رباط العقيدة ، والمبادىء . وانما هو رباط الزعامة ، والمنفعة المادية التي توفرها الزعامة للأفراد .

ومن أجل التأثر بالمحسوس والمادي اذا أله المجتمع الجاهلي أو المادي الها ما ، فانه يجسده ، بحيث يراه ويلمسه . ومن هنا تشيع « الوثنية » في المجتمعات الجاهلية أو المادية . اذ الوثنية الاتجاه بالعبادة الى مشخص .

ومن أجل التأثر بالمحسوس والمادي وحده فى القبول أو فى الرفض يطالب المجتمع المادى أو الجاهلى بالدليل المادى وحده عندما يعرض عليه التصديق برسالة رسول ، يرسل لهداية الناس ٠

ورسالة الاسلام فى هداية الناس ، هى فى نقلهم من مرحلة الأنانية أو الطفولة البشرية ٠٠ الى مرحلة المشاركة ، أو الرشد الانسانى ٠٠ هى فى تخفيف حدة الأنانية ٠ وتخفيف تركيز التفكير والوجدان حول « الذات » ٠٠ هى فى ايقاظ الوعى نحو ادراك القيم الانسانية ، بجانب ادراك المتع المادية والمظاهر المحسة فى الوجود ٠

الاسلام فى دفعه الجاهلية فى حياة الناس ، انما يدفع طغيان المحسوس والمادى وحده ، ليفسح مكانا فى حياتهم للقيم الانسانية، وليعيد التوازن بينها من جهة وبين المحسوس والمادى من جهة أخرى ٠

الاسلام لا يدفع الاستمتاع بالمتع المادية ولا ينهى عنه ٠ وانما يدفع الطغيان به ٠ ولا يدفع الاقتصاد ، والاستزادة من المال ، وانما يدفع أن يصبح الاقتصاد معبودا والها ٠ ولا يدفع القوة المادية ، ولا عصبية الأولاد ٠ وانما يدفع أن تكون وسيلة القوة المادية للاعتداء والعدوان ٠

الاسلام يدعو الى القيم الانسانية فى حياة الناس لتقوم عليها علاقة بعضهم ببعض ٠ يدعو الى المودة،والتعاون ، يدعو الى التعاطف والمشاركة ٠٠ يدعو الى العدل وأداء الأمانات والمسئوليات ٠٠ يدعو الى العطاء من انسانية الانسان فى غير مقابل ٠٠ يدعو الى الاحسان فى المعاملة ، والقول ، والسلوك ٠

ويدعو الاسلام الى الايمان بالله : يدعو الى تحقيق الوصايا والمبادىء التى جاءت بها رسالته ٠ وهى مبادىء ووصايا تتعلق بأهمية القيم فى حياة الناس ٠

المؤمن بالله هو من نهى النفس عن الهوى ، والهوى هو ميل النفس الى الذات وحدها ٠ وهو من خشى الله ٠ وخشيته لله تتحقق باتباع المبادىء والوصايا فى كتابه : « **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ٠ فان الجنة هى المأوى** » (١) ٠

والجاهلى أو المادى ، أو الطاغى بمتع الحياة الدنيا هو من يؤثر الحياة الدنيا ويقف بايمانه عندما : « **فاما من طغى ٠ وآثر الحياة الدنيا ٠ فان الجحيم هى المأوى** » (٢) ٠

وليس هناك من شك فى أن النجاح سيكون حليف المؤمن بالله: « **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** » (٣) ٠

***

*** دعوة الاسلام ليست الغاء للمتع المادية :**

ودعوة الاسلام الى القيم الانسانية العليا فى حياة الانسان لا تنطوى على الغاء الجانب المادى ، ولا على الغاء الاستمتاع بالمتع المادية والانصراف عنها ٠ فلم يزل الاسلام يقر : أنها زينة لهم فى

---

(١) النازعات : ٤٠ ، ٤١ (٢) النازعات : ٣٧ ــ ٣٩
(٣) البقرة : ٢٥٦

الحياة الدنيا ، وأن الاستمتاع بها مباح للمؤمنين فى الدنيا ، ووقف عليهم فى الآخرة : «**قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**» (١) ٠

كذلك لا تنطوى دعوة الاسلام الى القيم الانسانية فى حياة الناس : على اغفال شأن القوة المادية ٠ فقد أشاد القرآن بالحديد كمصدر للقوة وللمنافع العديدة فى حياة الناس ، وجعل فضل الله به عليهم كفضل الكتاب فى هدايتهم : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز** » (٢) ٠

ولكن هذه الدعوى تنطوى فقط على تجنب الطغيان والاعتداء ، عن طريق استخدام الجانب المادى ٠ وهذا الطغيان قد يتمثل فى الاسراف مرة ، وفى ارتكاب الفاحشة مرة أخرى ، وفى الشرك بالله ثالثة ٠

ولذا ينهى القرآن عن الاسراف فى الاستمتاع فيقول :

« **يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد**

« **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين** » (٣) ٠

---

(١) الأعراف : ٣٢ (٢) الحديد : ٢٥

(٣) الأعراف : ٣١

كما ينهى عن مباشرة الفواحش،وبالأخص : الجرائم الاجتماعية منها ، وهى : الزنا .. والسرقة .. وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، وينهى أيضا عن الظلم ، فيقول :

« قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق » (١) .

وينهى عن الشرك بالله فيما جاء فى قوله سابقا :

« وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » (٢) .

ومن يفهم من رسالة الله للانسان على الأرض : انها تدعو الى تنفير الانسان من الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا عليها .. أو أنها تصور له أن المتع المادية أمر نجس يجب عدم الاقتراب منه : يسىء الى مطلوب الرسالة الالهية . وهو :

أولا : ابعاد الطغيان بالمادة . وهو طغيان الاسراف فى المتعة المادية .. وطغيان مباشرة الظلم والفواحش عن طريق القوة المادية.. وطغيان الشرك بالله .

ثانيا : افساح المجال فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض لسيادة القيم الانسانية العليا ، على الروابط المادية .

***

---

(١) الأعراف : ٣٣ (٢) الأعراف : ٣٣

الوحى المكى .. فى مواجهة المادية

ومواجهة القرآن للجاهلية ـ وهى المواجهة التى تصورها رسالة الله لتحدى المادية فى أى وقت ـ يحكيها الوحى المكى . فسور الوحى المكى جميعها تتعرض للماديين أو الجاهليين :

* فى تحديد صفاتهم كما جاء بها القرآن الكريم .
* وفى موقفهم من القرآن .
* وفى موقفهم من الرسول عليه السلام ..
* وفى موقف الرسول عليه السلام ، منهم .

***

أولا ـ فى تحديد صفات الماديين :

١ ـ الأنانية :

فأولا : يذكر القرآن من صفاتهم : الأنانية . والأنانية أو حب الذات خاصة للطفولة البشرية التى تعتمد على المحسوس وحده . ويذكر القرآن ذلك فى جانب بعض المؤمنين الذين تراجعوا فى غزوة (أحد) وكان تراجعهم سببا فى هزيمة المؤمنين ككل فى هذه الغزوة فيقول تعالى :

« **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية** (فبعض المؤمنين لم يفكروا فى غير ذواتهم ، فى هذه الغزوة . فكروا فقط فى النجاة بأنفسهم ، وتصوروا أن نجاتهم فى بعدهم عن ميدان القتال) .

« يقولون هل لنا من الأمر من شيء »

«قل إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا »

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم » (١) (ويرد عليهم القرآن فى تصورهم ربط حياتهم بالبعد عن ميدان القتال : بأن الموت والحياة أمر مقدور من الله ولا يرتبط بمكان معين . فاذا كان الموت مقدرا لانسان ما فانه يلحقه وهو فى بيته لاجىء اليه) .

فتفكير هذا النفر من المؤمنين وقت الشدة ، فى غزوة (أحد) فى أنفسهم وفى مصالحهم الخاصة : بقية من صفات الجاهليين أو الماديين فيهم ، وشأن المؤمنين الذين انتقلوا بالايمان الى القيم الانسانية أن يفكروا فى غيرهم كما يفكرون فى أنفسهم .

٢ ـ التطاول بالشرف :

ومن صفاتهم أيضا : التطاول بالشرف ، فيقول الله فى شأن ترفع الوجهاء من قوم نوح عن أن يكونوا مع الأتباع لهم فى اطار واحد ، وفى دائرة من المبادىء لا تميز بينهم :

« قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » (٢) .

فالملأ أو أصحاب الوجاهة فى قوم نوح أعلنوا أن من أسباب امتناعهم عن الايمان بدعوته : ايمان فريق من الضعفاء والأتباع لهم برسالته . وهم يأنفون بسبب وجاهتهم أن يكونوا مع هؤلاء فى مجموعة واحدة .

---

(١) آل عمران : ١٥٤ (٢) الشعراء : ١١١

كما يحكي على لسان الجاهليين والماديين فى شبه الجزيرة العربية : أن من أسباب رفضهم لرسالة القرآن : أن الله لم يبعث به عظيما من عظمائهم فى مكة أو فى الطائف • أى لم يرسل به واحدا من الزعماء فيهم ، عندما يقول سبحانه :

«وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » (١)

فعنجهية الجاهلية أو المادية لا تجعل غير الاثرياء والزعماء فى القبيلة أو فى المجتمع : أصحاب صلاحية للصدارة فى القيادة • والرسول عليه السلام ليس واحدا من الأثرياء ، ولا واحداً من الزعماء • وبالتالى ليس فى نظرهم ذا أهلية لأن يرسل من ربه ويتصدر دعوته الى الحق فيهم •

٣ ــ الاعتزاز بالمال والقوة المادية :

وأمر طبيعي أن يكون من طغيانهم أيضا الاعتزاز بالمال والقوة المادية يحكى ذلك قوله تعالى فى جواب الملأ والنخبة فى قوم سبأ للكتهم عندما طلبت منهم الرأى فى مواجهة رسالة سليمان :

« قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين » (٢) •

فهم لا يقدرون سوى القوة المادية فى مواجهة أعدائهم •

كما يحكيه على لسان المترفين فى كل مجتمع ، عندما يدعى هؤلاء الى اتباع رسالة الله التى تطلب العدل بين الناس جميعا ، فى قوله تعالى :

---

(١) الزخرف : ٣١ (٢) النمل : ٣٣

« وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها
« انا بما أرسلتم به كافرون •
« وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » (١) •

وقد سجله القرآن كذلك على لسان عاد فى ردهم على رسالة هود ، فى قول الله تعالى :

« فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة » (٢) •

فالمال والقوة المادية هما سندا المادية أو الجاهلية فى حياة الانسان أو المجتمع المادى •

٤ ـ الاستخفاف بالفقراء من أصحاب الدعوة الى القيم الانسانية .

ويتبع الطغيان بالمال والقوة المادية : الاستخفاف بالفقراء ، اذا باشروا الدعوة الى القيم الانسانية•فالمعتز بماله أو قوته لايصغى اطلاقا لدعوة من فقير يدعوه الى العدل والرحمة • ويعتبره صاحب جرأة غير عادية ، وخارجا عن اللياقة والذوق • ولذا يسخر منه ويتهكم عليه • والقرآن يحكى تهكم الحاكم فى مصر من موسى ، ومن جرأته فى الدعوة التى دعاه اليها ، فى قول الله تعالى :

« ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون •

---

(١) سبأ : ٣٤ ، ٣٥ (٢) فصلت : ١٥

« أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين •

« فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب

« أو جاء معه الملائكة مقترنين » (١) •

كما يحكى ما كان يواجه به الماديون والجاهليون فى مكة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عندما يلقونه ، من السخرية والاستهزاء به ، اذ يقول :

« واذا رآك الذين كفروا أن يتخذونك الا هزوا

« أهذا الذى يذكر آلهتكم

« وهم بذكر الرحمن هم كافرون » (٢) •

ويوضح ما كان عند هؤلاء الزعماء من تصور : وهو : طالما أن الداعى لا يتميز بزعامة أو مال •• طالما أنه انسان عادى فليس هناك ما يدعو الى اتباعه • بل ان اتباعه يحقق الخسارة المادية لمن يتبعه• فهو غير متميز عن الآخرين ، ومن ثم لا ينبغى أن تسمع له دعوة :

« وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا (وهم الماديون أو الجاهليون) •

« ما هذا الا بشر مثلكم (أى هو انسان عادى) **يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون •**

« ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذن لخاسرون » (٣) •

---

(١) الزخرف : ٥١ ــ ٥٣ (٢) الأنبياء : ٣٦

(٣) المؤمنون : ٣٣ ، ٣٤

وكقاعدة عامة فى هذا المجال يذكر القرآن : أن الماديين يقعون تحت التأثر بأمرين فى حياتهم : تحت الاغراء بالمتع المادية من جانب، والسخرية من المؤمنين ـ لأنهم عادة لا يملكون منها الا قليلا ـ من جانب آخر ، فيحكى عن الله تعالى قوله :

« **زين للذين كفروا الحياة الدنيا**

« **ويسخرون من الذين آمنوا** » (١) •

٥ ـ الاستكبار •• والطغيان :

والاستكبار مقدمة للطغيان • هو الانصراف عن النظر فى الحق فى ذاته •• هو العلو عنه ، فى تقييم بخس له • والمستكبر يملأ نفسه بالخيلاء والاعجاب بذاته وبما هو فيه من جاه ، ومال ، وعصبية ، فى الوقت الذى يستصغر فيه غيره ، ويزدريه ، ويحتقره• والمستكبر جرىء ضد الحق ، وفى مناصرته للباطل ، يقول الله تعالى فى وصف الماديين بهذه الصفة :

« **سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق** (فيبقيهم بعيدين عن الهداية) •

« **وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها** (لأنه لا يسعى الى الاقتناع• وانما هو من أول الأمر مصمم على الرفض) •

« **وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا** (لأنه ضار بهم وبمصالحهم) •

« **وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا** (لأنه السبيل الذى يمكن لهم فى العبث والفساد) •

---

(١) البقرة : ٢١٢

« **ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ، وكانوا عنها غافلين** » (١) ٠

والمستكبر اذا طغى ظهر ايثاره للحياة الدنيا ٠٠ ايثاره لجاهها، ولمتعها المادية ، ولأموالها ، وللعصبية والقوة المادية فيها : « **فأما من طغى ٠ وآثر الحياة الدنيا ٠ فان الجحيم هى المأوى** » (٢) ٠

٦ ـ الشـح :

ومن كانت من صفاته الأنانية فانه من المألوف في صفاته العديدة: أن يكون شحيحا بماله فى انفاقه على أصحاب الحاجة معه فى مجتمعه٠ ويحكى القرآن الكريم عن الماديين أو الجاهليين فى حديثهم عن أنفسهم ، قولهم :

« **واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا** (وهم الماديون) **للذين آمنوا**

« **أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين** » (٣)

فهم يتهكمون فى جوابهم على سؤال المؤمنين لهم بالانفاق على أصحاب الحاجة ٠ وكأن المؤمنين يطلبون منهم ما لا ينبغى أن يطلب ، وكان يجب عليهم أن يتوجهوا بسؤالهم الى من يؤمنون به ، وهو الله تعالى وحده ٠ والمؤمنون كأنهم أخطأوا مرتين : أولا بتوجيههم السؤال للجاهليين ٠ اذ هم أصحاب نزعة مادية يحرصون على أن تنفق أموالهم فى مصالح ذواتهم وحدها ٠ وثانيا اذا كانوا يعتقدون فى الله وحده وفى قدرته فالأولى لهم أن يسألوه مباشرة لاطعام الفقراء وأصحاب الحاجة ٠

---

(١) الأعراف : ١٤٦ (٢) النازعات : ٣٧ ـ ٣٩
(٣) يس : ٤٧

كما يحكى قولهم :

« **قالوا** (أى المجرمون ـ وهم الماديون) : **لم نك من المصلين** (لأنهم يتجاهلون الله) •

« **ولم نك نطعم المسكين** (لأنهم أنانيون) •

« **وكنا نخوض مع الخائضين** • (فى تشويه الاسلام ، حرصا على بقاء زعامتهم) •

« **وكنا نكذب بيوم الدين** » (١) (لأنهم يؤمنون بالدنيا وحدها) فيقرون على أنفسهم بالشح وعدم الانفاق على أصحاب الحاجة•

وقد قرن القرآن وصفهم بالشح بوصفين آخرين من الزم الصفات لهم : نزعتهم الى الاعتداء •• وشركهم بالله ، فى قول الله تعالى ، مخاطبا المكلفين بالحراسة ـ عن اليمين والشمال لكل واحد ـ بهم :

« **ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد** •

« **مناع للخير**

« **معتد مريب** •

« **الذى جعل مع الله الها آخر فألقياه فى العذاب الشديد** » (٢) •

٧ ـ الجدل بالباطل •

ويصفهم القرآن كذلك بأنهم اذا دخلوا الجدل أو الحوار مع أصحاب الحق فانهم يجادلون بالباطل • وهذا أمر طبيعى لأنهم يستندون الى منافع خاصة بهم • والحق فى ذاته قد لا يساير المنفعة

(١) المدثر : ٤٣ ـ ٤٦ (٢) سورة ق : ٢٤ ـ ٢٦.

الخاصة • وحرصهم على منافعهم يشدهم الى تأييد الباطل ، كلما ابتعدت منفعتهم عن الحق فى ذاته • يقول تعالى :

« ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » (١) •

٨ ـ انكار البعث :

كما يجعل من صفاتهم : انكار البعث واليوم الآخر • اذ طالما هم واقعون تحت اغراء الحياة الدنيا ، بما فيها من زينة ومتع فانهم لا يرون نهاية لها • كما أنهم يرون الجزاء للانسان قاصر على هذه الدنيا ، اما بالحصول على هذه المتع أو الحرمان منها ، وليس وراء متع الدنيا جزاء آخر فى دار أو فى مرحلة اخرى •

واذا كان الناس جميعا فى هذه الدنيا قد وضعوا أمام شهوات الغرائز ، كما يشير الى ذلك قول الله تعالى :

« زين للناس حب الشهوات

« من النساء

« والبنين

« والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ،

« ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » (٢) •

فالماديون منهم جمدوا أمام هذه الشهوات ، ونالت من نفوسهم حتى سيطرت عليها • فتحركهم فى ظل هذه السيطرة وحدها •

---

(١) الكهف : ٥٦ (٢) آل عمران : ١٤

ويقول الله فى انكارهم للبعث :

« **أيعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون** •
« **هيهات هيهات لما توعدون** •

« **ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا** (جيلا بعد جيل الى الأبد) **وما نحن بمبعوثين** » (١) •

كما يجعل موقفهم من البعث نتيجة لأمرين :

الأمر الأول : وقوعهم تحت اغراء الحياة الدنيا •

والأمر الثانى : تجاهلهم لهداية الله ورسالته للانسان ، فيقول :
« **ان الذين لا يرجون لقاءنا**

« **ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها**
« **والذين هم عن آياتنا غافلون** » (٢) •

٩ ـ المطالبة بالدليل المادى المحسوس :

واذا كان من أخص أمرهم : تجاهل القيم الانسانية ، والركون الى المحسوس والمشاهد وحده ، فانهم فى مجال الاقتناع والتصديق بالحجة ، لا يعرفون الا الأمر المشاهد والملموس دون سواه •

يحكى القرآن عن هؤلاء الماديين والجاهليين فى شبه الجزيرة العربية قولهم مطالبين بالدليل المحسوس فى مقام التصديق برسالة الرسول عليه السلام :

« **ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** (فهو لذلك مصدر الحجية على رسالة الرسول عليه السلام) •

---

(١) المؤمنون : ٣٥ ـ ٣٧ (٢) يونس : ٧

« فابى أكثر الناس (وهم الماديون) **الا كفورا •**

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا •

« أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا •

« أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا

« أو تأتى بالله والملائكة قبيلا •

« أو يكون لك بيت من زخرف

« أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه »

« قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا •

« وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا •

« قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا •

« قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، انه كان بعباده خبيرا بصيرا » (١) •

ثم يسوق القرآن طلب الدليل المادى كظاهرة عامة للماديين والجاهليين فى كل عهد من عهود الرسالة ، عندما يدعون الى الايمان برسالة الله ، وهى رسالة القيم الانسانية ، فيقول فى وصف أصحاب هذا الاتجاه من أهل الكتاب :

---

(١) الاسراء : ٨٩ ــ ٩٦

« **وقال الذين لا يعلمون** (الذين لا يقفون على رسالة الله فى جوهرها وهم أصحاب الاتجاه المحسوس من أهل الكتاب) :

« **لولا يكلمنا الله**

« **أو تأتينا آية** (محسة)

« **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم**

« **تشابهت قلوبهم** ،

« **قد بينا الآيات لقوم يوقنون** » (١). • فيحكى أن طلب بعض أهل الكتاب للدليل المحسوس على تصديق الرسول محمد عليه السلام فى رسالته ليس غريبا ولا غير معهود فى تاريخ البشرية • انما هو ظاهرة عامة تكررت على عهد الرسالات السابقة جميعها •

١٠ ـ احتضانهم للشرك :

فالشرك يقوم على احترام كثرة ، يصل أمر احترامها الى العبادة والتأليه •. ومغريات الحياة الدنيا عديدة تجلب نظر الماديين أو الجاهليين اليها وتحملهم بخداعها على السعى اليها والتقرب منها • ويرتبط بالشرك ظاهرة النفاق • وهى ظاهرة السعى من أجل تحصيل المنفعة أو دفع الضرر ، والانتقال بهذا السعى من موجود الى آخر • اذ الموجودات الدنيوية موجودات غير ثابتة وغير باقية • ولذا ليس من بينها من له الصلاحية للعبادة الدائمة وبالتالى ليس له صلاحية الوحدة فى الألوهية •

واذا كان الشرك عبادة كثرة من الموجودات ينتقل فيها العابدون فتجسيمها بصور الوثنية • وهكذا : تعدد الآلهة •• وتجسيم هذه الآلهة فى صور محسوسة أمران متلازمان فى اعتقاد المشركين •

ويذكر القرآن أن هؤلاء الماديين أو الجاهليين كانت نفوسهم

---

(١) البقرة : ١١٨

تهش وتشيع بالفرح اذا ذكرت أوثانهم والشركاء فى الألوهية •
وعلى العكس كانت تنقبض صدورهم اذا ذكر الله وحده :

« **واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة** (وهم الماديون) •

« **واذا ذكر الذين من دونه اذا هم يستبشرون** » (١)

١١ ــ السخرية من المؤمنين :

وسخرية الماديين أو الجاهليين من المؤمنين تتبع فى الدرجة الأولى : عدم مبالغة هؤلاء فى تقديرهم للمتع المادية ، على نحو ما يبالغ فى تقديرها أولئكم الماديون • ولذا ما جاء هنا حكاية عن سخرية الماديين للمؤمنين فى قول الله تعالى : « **ويسخرون من الذين آمنوا** » جاء بعد قوله :

« **زين للذين كفروا الحياة الدنيا** » (٢) •• أى جاء بعد أن أعلن عن هؤلاء الماديين : أنهم مأخوذون بالمتع المادية ، ومخدوعون بها •

***

ثانيا ــ فى موقف الماديين من القرآن :

واذا كانت هذه صفاتهم فموقفهم من القرآن يجب أن يكون منسجما مع ما لهم من صفات منكرة • وبالفعل ما يحكيه القرآن عن موقف الماديين من القرآن يدل على جرأتهم على الحق ، وعلى مدى تمسكهم بالباطل واللجاجة فيه :

---

(١) الزمر : ٤٥ (٢) البقرة : ٢١٢

١ ـ يحكي وصفهم له بأنه أخلاط من الرؤى :

« **بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شـاعر فليأتنا بآية** (أى مادية ومحسوسة) **كما أرسل الأولون** » (١) ٠

٢ ـ وبأنه كذب :

« **ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين** »(٢)

٣ ـ وبأنه من تأليف الرسول عليه السلام :

ولذا لم يستطع أن يأتى به جملة واحدة ٠ ولو كان من عند الله لأوحى به دفعة واحدة ٠ ويرد القرآن على ذلك بقوله :

« **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ،**

« **كذلك** (أى نزل مفـرقا على نحو ما نزل عليه) **لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا** » (٣) ٠

وتثبيت فؤاد الرسول عليه السـلام به هو تمكينه وتمكين المؤمنين معه من استيعابه وتطبيقه فى حياتهم ٠ فالايمان به ليس اعلانا يتلى ٠ وانما هو انتقـال من وضع نفسى ، واجتمـاعى ، واقتصادى ، الى وضع آخر مقابل تماما ٠٠ هو تكوين عادات جديدة، بدلا من عادات أخرى كانت متمكنة وسائدة ٠ وهذا الانتقال فى حاجة الى زمن وتدرج ٠ وكتابنا : « منهج القرآن فى تطوير المجتمع » يوضح : كيف أن القرآن كان يجب أن ينزل مفرقا ، وليس جملة واحدة ، وكيف تم الايمان به فى جيل وفى ثلاث وعشرين سنة ٠

---

(١) الأنبياء : ٥ (٢) المؤمنون : ٣٨

(٣) الفرقان : ٣٢

كما يرد على تحديهم للرسول عليه السلام ، فى طلبهم أن يأتى بقرآن آخر غير هذا القرآن ، ادعاء بأنه هو الواضع له ، بقوله :

«**واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا** (وهم الماديون اذ ينكرون البعث) :

« **ائت بقرآن غير هذا**

« **أو بدله** ،

« **قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ان أتبع الا مايوحى الى** (أى قل : ان هذا القرآن ليس من عملى · وانما هو وحى من الله · ولذا لا أستطيع التغيير والتبديل فيه) ·

« **انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم** » (١) ··

وقد عنى القرآن عناية تامة بدفع هذا الاتهام · وهو أن القرآن ليس وحيا من الله · فذكر أن الرسول عليه السلام كان موجودا بين الماديين المكيين قبل الرسالة بوقت طويل · ومع ذلك لم يسمعوا منه شيئا · وابتدأوا يسمعونه ، بعد أن كلف بالرسالة مما يدل على أنه من وحى الله :

« **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله** (أى قل لهم أيضا : ردا على ادعائهم بأن القرآن من عندك ، وليس من عند الله : قد لبثت فيكم عمرا من قبله ولم تسمعوا منى شيئا عنه · وكان من الممكن أن لا أتلوه عليكم أبدا ·· وكان من الممكن كذلك : أن لا يكون لكم به علم ، اذا قدر الله ولم

---

(١) يونس : ١٥

يرسلني اليكم به ٠ ووجوده الآن دليل على أنه من عند الله ، وليس من عندى) **أفلا تعقلون** » (١)

كما ذكر القرآن فى كل ما جاء به تصديق وتوضيح للكتاب الالهى السابق عليه ٠ ولا يمكن لانسان أن يؤلف من نفسه ما يكون تعبيرا صادقا عن كتاب الله ، ومفصلا لمبادئه ٠ فعلم الله وحده هو الذى يطابق بعضه بعضا تماما :

« **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله** (أى لا يجوز أن يكون هذا القرآن لغير الله ، ويفترى فى نسبته الى الله) **ولكن تصديق الذى بين يديه** (ولكنه من الله من غير شك ،ومصدق للكتاب السابق عليه ، وهو التوراة) **وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين**»(٢)

(وكما أنه مصدق لما بين يديه من كتاب ، هو تفصيل وتوضيح للكتاب الالهى ٠٠ وهو فى أصالته من رب العالمين ، فكونه مصدقا للكتاب السابق ٠٠ وكونه توضيحا للكتاب الالهى فى أصالته : يمنع أن يكون من غير الله ٠ كما يمنع أن ينسبه الرسول عليه السلام كذبا الى الله) ٠

واذا لم يقبل الماديون هذه الحجة أو تلك فهم أمام تحد ، وهو أن يأتوا بسورة مثله ، فقط ٠ ولهم أن يستعينوا بما يشاءون ٠ فان عجزوا لزمتهم الحجة ، وظهر أن معارضتهم له معارضة سطحية، وأن كفرهم به لم يكن كفرا بعد الالمام به :

« **أم يقولون افتراه** ، (أى ألفه ، ونسبه كذبا الى الله) ؟

« **قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين** ٠

---

(١) يونس : ١٦

(٢) يونس : ٣٧

« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمـا ياتهم تاويله ،

« كذلك كذب الذين من قبلهم ،

« فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ·

« ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به (وسيظل الموقف من القرآن الى يوم البعث : أن بعض النـاس يؤمن بـه ، والبعض الآخر لا يؤمن بـه · لأن النـاس فيما بينـهم يختلفون · ويرجع اختلافهم الى مدى تاثرهم بالحياة الدنيا ومتعها المـادية) ·

« وربك أعلم بالمفسدين » (١) ·

كذلك يكرر تحديه لهم ويعلن أن قولهم بأن القرآن من صنع الرسول ، يعود الى عدم ايمانهم به ، وليس الى واقع فى ذاته :

« آم يقولون تقوله ،

« بل لا يؤمنون ·

« فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » (٢) ·

٤ ــ وبدعوتهم الى الاعراض عنه ، مع اللغو فيه :

يحكى القرآن عنهم قولهم :

« وقال الذين كفروا

« لا تسمعوا لهذا القرآن

---

(١) يونس ٣٨ ــ ٤٠ (٢) الطور : ٣٣ ، ٣٤

« **والغوا فيه لعلكم تغلبون** » (١) ٠٠ فهم يدعون الى عدم طاعته ومعارضته ، ثم الى التشويش عليه بالاختلاق والافتراء ، لعل ذلك يخلق جوا يشكك فيه ٠

٥ ـ وصفهم له بالخرافة :

فيذكر قولهم :

« **يقول الذين كفروا**

« **ان هذا الا أساطير الأولين** » (٢) ٠

كما يقول :

« **اذا تتلى عليه آياتنا قال**

« **أساطير الأولين** » (٣) ٠٠ والأسطورة ، أو الخرافة ما يكون من صنع الوهم ، وليس أمرا متيقنا يبنى عليه توجيه سليم ٠

٦ ـ ووصفهم له بأن الرسول تعلمه من غيره :

عندما يقول القرآن نفسه :

« **ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر** » (٤) ٠٠ وقد توسع فى هذا الادعاء وكرره : أهل الكتاب : وبالأخص من تناوله من المحدثين منهم ٠ ويذكرون هذا الادعاء فى مقام تبرير اختلاف التوراة أو الانجيل عن القرآن ٠ فاذا أعلن القرآن مثلا : بشرية عيسى ، أو بشرية عزير ،

---

(١) فصلت : ٢٦ (٢) الأنعام : ٢٥

(٣) القلم : ١٥ (٤) النحل : ١٠٣

أو أعلن وحدانية الله وأكد عليها اتهموه بالتحريف فى نقله عن التوراة ، أو الانجيل ، وبأن الرسول عليه السلام لم يستطع فهمه عندما نقله اليه بعض النصارى ، أو اليهود ٠

٧ ــ ووصفهم له بالسحر والخداع :

فيحكى القرآن عنهم قوله تعالى :

« وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ٠

وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر » (١) ٠٠ فكفار قريش كلما يرون الناس عداهم مقبلين على الدعوة،ومتمسكين بالايمان بها ، يمعنون هم فى الاعراض عنها ويعلنون تزايد الاقبال عليها من غيرهم بخداع الرسول عليه السلام اياهم ٠٠

وبتصويرهم أمر الدعوة على هذا النحو يعيشون فى الكذب واتباع الأهواء ٠ وسيفاجأون أخيرا بما تنتهى اليه هذه الدعوة يوم يعلن الله مصيرها : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » (٢) ٠٠ اذ كل أمر له نهايته التى تتقرر حتما ٠

❋ ❋ ❋

ثالثا ــ فى موقفهم من الرسول عليه السلام :

أما موقف هؤلاء الماديين أو الجاهليين من الرسول عليه السلام فهو موقف الحاقد عليه ٠٠ موقف المترقب له الفشل ٠٠ الذى يشيع عنه السوء ، ويختلق عليه الباطل فبينهم وبينه صراع مرير من جانبهم ٠ لأن نجاحه فى دعوته معناه : تفويت أمر الزعامة عليهم فى

---

(١) القمر : ٢ ، ٣ (٢) المائدة : ٣

مكة الى الأبد • وهم يعيشون أسيادا على حسابها • أما ما يترتب على نجاح هذه الدعوة من خير للبشرية ، ومن اعادة للقيم الانسانية من اعتبار ، ومن انهاء لسيادة الانســان على الانسان ، وسخرية الانسان من الانسان : فذلك لا يهمهم فى قليل أو كثير • لأن اتجاههم المــادى أو الجاهلى فى الحياة يزين لهم دور الأنانية وحدها •

ومن حقدهم عليه ـ عليه السلام ـ كانوا لايتورعون عن وصفهم له بالجنون • اذ هم لا يتصورون اطلاقا أن واحدا من مكة يدعوهم الى رفض الشرك والوثنية ، والوقوف بالايمان عند وحدة الألوهية، وهو مستكمل لقواه العقلية !! •

وعندما يتحدث القرآن عنهم فى قول الله تعالى :

« **وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمــا سمعوا الذكر** (يبرز مدى غلهم منه وحقدهم عليه • فالذكر ـ وهو القرآن ـ عندما يسمعونه لا يدعوهم فقط الى رفض الشرك والوثنية •وانما ينذرهم بأشد العقاب ، ان هم استمروا فى شركهم ووثنيتهم • ولذا : من يدعوهم الى ما يدعوهم اليه هنا ، وينذرهم بالعقاب الشديد ، لايفعل ذلك الا وهو مجنون فى تصورهم) !!

« **ويقولون انه لمجنون** •

« **وما هو الا ذكر للعالمين** » (١) •• فوصفهم اياه بالجنون هو وصف يساير منطقهم وحدهم • ويرد القرآن عليهم باطلهم فيقول : ان كتاب الله الذى أوحى به الى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وتضمنت دعوته : رفض الشرك والوثنية ، وعودة الناس الى وحدة الألوهية : هو موجه للناس جميعا•لأنه دعوة الى تحولهم من المادية

---

(١) القــلم : ٥١ ، ٥٢

أو الجاهلية الى القيم الانسانية فى ترابط بعضهم ببعض •• فهو ذكر للعالمين • لا يخص العرب وحدهم ، ولا قريشا بالتالى وحدها • فزعماء قريش اذ يصفونه بالجنون من أجل دعوته الى القيم الانسانية فى الترابط بين الناس ، لديهم ضيق فى الأفق ، وتحزب من أجل المصلحة • وهى مصلحة الزعامة •

***

رابعا ـ فى موقف الرسول منهم :

١ ـ وموقف الرسول عليه الصلاة والسلام منهم فى أول أمر الدعوة: اعراض عنهم وعما يثيرونه ضده : توفيرا للوقت والجهد فى سبيل الدعوة •

« فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا» (١) •

فيطلب اليه القرآن هنا : أن يغض النظر عنهم ، بسبب قولهم عن القرآن وعن دعوته الى مبادئه • فهم ماديون أو جاهليون ، يقفون باهتمامهم وبايمانهم عند حد متع الحياة الدنيا وحدها • وشأن من يقف باهتمامه وايمانه عند حد الدنيا وحدها لا يفسح فى ايمانه منزلة للقيم الانسانية ، ويرفض مقدما أن ينظر فى اعتبارها ، مهما كان هذا الاعتبار واضحا لها •

٢ ـ وكما يطلب منه عليه السلام الاعراض عنهم فى بدء دعوته يطلب منه أيضا فى صراحة : عدم اتباعهم فى متاهاتهم وتجنب ما يسألونه عنه :

« ولا تطع كل حلاف مهين •

---

(١) النجم : ٢٩



« **هماز مشاء بنميم** »

« **مناع للخير ، معتد أثيم** »

« **عتل بعد ذلك زنيم** »

« **أن كان ذا مال وبنين** » (١) ‏٠٠ فالقرآن هنا يذكرهم ببعض صفاتهم كماديين أو جاهليين ، وهى صفات مشينة : من الأنانية ، وحبس الخير عن أصحاب الحاجة ان كانوا أصحاب مال،ومن الاعتداء الواضح على الآخرين ان كانوا أصحاب قوة مادية ، ومن السعى بين الناس بالفساد ، ومن مهانتهم بسبب تماديهم فى الحلف بالباطل٠

٣ ــ ولكن ليس معنى أن يطلب القرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام : أن يعرض عن الماديين فى المرحلة الأولى لدعوته،وأن لا يفكر فيما يسألون عنه لما لهم من صفات قبيحة تحول دون اخلاصهم أو صدقهم فيما يدعونه : أن يتوقف عن الدعوة،وأن يجمد رسالته٠وانما المطلوب منه بهذا ٠ وبذاك معا : أن يتجاوز مؤقتا موقفهم منه ومن القرآن ، ويستمر فى نشاط الدعوة لهم ولغيرهم ، رغم تحديهم اياه بالاتهامات الباطلة ، والعديدة ٠٠ معنى ذلك أن لا يترك موقفهم يؤثر على نفسه تأثيرا سلبيا يسىء الى استمرار الدعوة ٠ وقوتها ٠

وقد جاء فى سورة الطور ذلك النداء القوى الذى يطلب منه مباشرة دعوته ، رغم العديد من الاتهامات التى وجهت اليه من هؤلاء الماديين أو الجاهليين ، اذ يقول تعالى :

١ ــ « **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** »(فيطلب اليه أن يستمر فى دعوته ، وينفى فى الوقت نفسه : أنه من الكهان الذين

---

(١) القلم : ١٠ ــ ١٤

كانوا يتجرون بعلم الغيب ، وقد جاءت سورة الجن لتوضيح قيمة الكهانة وبطلانها) ٠

٢ ــ « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ٠ قل تربصوا فانى معكم من التربصين ٠ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون ٠

٣ ــ « أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون ٠ فليأتوا بحديث مثله، ان كانوا صادقين ٠

٤ ــ « أم خلقوا من غير شيء (من غير خالق) **أم هم الخالقون٠ أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون ٠ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ٠**

٥ ــ « أم لهم سلم يستمعون فيه ، فليأت مستمعهم بسلطان مبين ٠

« أم له البنات ولكم البنون ٠

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ٠

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون ٠

« أم يريدون كيدا ، فالذين كفروا هم المكيدون ٠ أم لهم اله غير الله ، سبحان الله عما يشركون » (١) ٠

فهذه الآيات تعلن تقريبا نفى جميع الاتهامات الرئيسية التى كان الماديون يوجهونها اليه عليه الصلاة والسلام، أو الى كتاب الله ٠ فقد

---

(١) الطور : ٢٩ ــ ٤٣

وصفوة عليه السلام ببعده فيما جاء به فى دعوته : عن الواقع ·
فهو اما ساحر أو مسحور ، أو شاعر أو مجنون · كما وصفوا القرآن
بأنه منقول لآخرين من أهل الكتاب ، لم يستطع أن يعيده ، كما تركوه
له ، فحرف فيه وأخطأ ·

* * *

جاهلية الأمس .. واليوم

وهكذا : تتضمن السور المكية الصفات التى يستخلص منها وضع الجاهليين أو الماديين على عهد الرسول عليه السلام ، سواء :

* أكانت صفاتهم هم فى أنفسهم ٠

* أم صفاتهم فيما يتعلق بموقفهم من القرآن٠٠أو من شخص الرسول عليه السلام ٠

كما تتضمن الموقف الذى يجب على الرسول عليه السلام أن يقفه من وضعهم فى الصراع معه ضد دعوته ٠

ويمكن الآن أن نعيد هذه الصفات مرة أخرى ، تمهيدا للموازنة، بين جاهلية الأمس ٠٠ وجاهلية اليوم ، أو مادية الأمس ٠ ومادية اليوم ٠

ففى الصفات الذاتية للجاهليين بالأمس يذكر القرآن :

* الأنانية ٠ وهى مصدر رئيسى لانكار القيم الانسانية ، وبالتالى لانكار « مشاركة الغير » للذات فى الوجود القائم ٠

* والاعتزاز بالثراء ٠٠ والقوة المادية الى درجة الاستكبار . والطغيان بهما ، أو بأحدهما وتبعا للاعتزاز بالثراء : قبول قتل الأولاد خشية الفقر٠٠والطمع فى مال اليتيم أو الضعيف ٠٠ والتلاعب فى المعاملات المالية والتجارية ببخس الكيل والميزان ، أو بتطفيفه ٠

وعن الاعتزاز بالثراء كذلك تنمو لدى المعتزين بالمال : نزعة السخرية من المؤمنين • وهم غالبا من الفقراء الذين لا يسعون الى متع الحياة ، بقدر سعيهم الى رضاء الله •

* واحتضان الشرك ، وانكار وحدة الألوهية • اذ الاعتقاد فى وحدة الألوهية يجعل المؤمن بها ثابتا عند الكمالات التى يوصف بها الله سبحانه • وهى كمالات تدعو المؤمن الى التقرب منها بتحقيق القيم الانسانية العليـا فى حياة الانسان •

* والجدل بالباطل • لأنه يقوم على المبالغة فى تقييم الاقتصاد ومتع الحياة المادية ، فى مواجهة القيم الانسانية •

* والمطالبة فى الجدل أو فى الاقناع بالدليل المحسوس وحده •

* وانكار البعث والحياة الأخروية ، تأسيسا على أن الموجود وحده هو المـادى المشاهد •

ولو انتقلنا الآن من صفات الجاهليين بالأمس ـ كما يذكرها القرآن ـ الى صفاتهم اليوم لوجدنا :

أن المادية التاريخية مثلا ـ وهى المادية الماركسية ، والشائعة الآن ـ تنظر الى « الثروة » والمال كأساس يحدد كل « مدنية » ولو عقلية •

والمادية كمذهب تضع هدف الحياة فى المتعة الحسية القائمة • وتجعل الأمر الذى يجب أن يسعى اليه الانسان هو المتع المـادية أو الحسية ، بينما تحتقر جميع القيم الانسانية ، أو المثالية •

والمتع المادية فى نظر الماركسية : هى أساس الحياة والمدنية •

ومن لا يملك هذه المتع فى نظر الماركسية يمكن أن يستعين بالشيطان فى الاهتمام بالقيم الانسانية ، كما يقول ماركس !! ٠

فالاعتزاز بالثراء ، أو بالاقتصاد ٠٠ والاستخفاف بالقيم الانسانية ، والسخرية ممن يسعون اليها : أجزاء أصيلة فى كيان المادية ٠ وبالتالى يشتق منها صفات الماديين المعاصرين ٠

فكما أن من صفاتهم :

* الايمان بالمادة ومتع الحياة المحسة ٠٠ والاستخفاف بالقيم الانسانية : فمن صفاتهم كذلك :

* الأنانية ٠ لأن من يستخف بالقيم الانسانية لا يقر بمشاركة الآخرين فى الوجود معه ٠

ومن يسخر ممن يسعون الى القيم الانسانية ان اشترك معهم فى جدل أو فى حوار فانه يجادلهم بالباطل ٠ وفى الوقت نفسه ينزع الى الشرك ، منصرفا عن السعى الى الكمالات الالهية التى لله وحده٠

* * *

وفى موقف الجاهليين بالأمس من القرآن ، أعلنوا وصفهم له ، كما جاء فى القرآن ذاته :

* بأنه محض اختلاق ٠٠ وكذب فى نسبته الى الله ٠
* وبأنه من تأليف محمد بن عبد الله ٠
* وبأنه أسطورة ، وخرافة ٠
* وبأنه منقول اليه من أهل الكتاب ٠

❋ ثم بدعوتهم الى الاعراض عنه واللغو فيه •

ولو انتقلنا أيضا الى موقف الماديين المعاصرين واعداء الاسلام من القرآن اليوم لوجدنا هؤلاء الماديين يرون فى القرآن : خرافة وأسطورة ، لأنه لا يخضع لمقياس العلم كما يقولون !! وهو التجربة وفى نظرهم من أجل ذلك : هو مصدر اضرار البشرية • ولذا يجب الاعراض عنه واللغو فيه ، وكشف ما ينطوى عليه من خداع !! •

❋ أما المستشرقون فيعلنون أنه ليس وحيا من الله • بل هو مختلق ومن عمل محمد بن عبد الله • وقد حاول أن يأخذه من أهل الكتاب فلم يوفق •• وأعاد ما أخذه محرفا فيما يسميه القرآن • وآية تحريفه أنه يختلف مع التوراة،والانجيل ، وبالأخص مع الأخير فى بشرية المسيح ، وقتله •

وبادعائهم أن اختلاف القرآن مع التوراة والانجيل :يبعد القرآن عن أن يكون وحيا من الله ، ان هو الاتضليل ومحاولة لاخفاء ما قام به زعماء أهل الكتاب من تحريف فى التوراة والانجيل ، حرصا على زعامتهم فى مجتمعاتهم • فهدف رئيسى من أهداف القرآن الكريم الثلاثة هو تجلية الحق فى رسالة الله ، الذى طمس معالمه : ما أتى به الزعماء السابقون من أهل التوراة ، وأهل الانجيل فى أزمنة متلاحقة ، من تغيير وتبديل :

يقول الله فى كتابه الكريم :

« **ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** •

« **وانه لهدى ورحمة للمؤمنين** •

« **ان ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم** •

« **فتوكل على الله ، انك على الحق المبين** » (١) ‥ فبجانب تأكيد الله : أن القرآن مصدر هداية ورحمة للبشرية ــ وهو لا يكون كذلك الا اذا كان رسالة من عند الله ــ هو أيضا الفيصل بين الحق والباطل فيما يختلف فيه أهل الكتاب أنفسهم عما جاء فيه (فى القرآن ذاته) ٠

واذ يعلن القرآن هنا أيضا أن الله هو الذى سيتولى مواجهة الزعماء من أهل الكتاب فيما غيروا وبدلوا فيه ، فلكى يوفر لرسول الله عليه السلام : الوقت والجهد ، معا فى سبيل دعوته ، واستمرار دفعه اياها ، الى الأمام ٠

* * *

* وفى موقف الجاهليين أو الماديين بالأمس ، من الرسول عليه السلام نجد حقدهم واضحا عليه ٠ لأنهم يتصورون بنجاحه فى دعوته ، أنه سيقوض عرش زعامتهم فى مجتمعاتهم ٠ وهذا أمر لاجدال فيه ٠ فطالما كانت زعامتهم تقوم على الاعتبار المادى وحده فى هذا الوجود فانتصار القيم الانسانية على الاعتبارات المادية فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، ودعوة هذه الاعتبارات الى حجمها الطبيعى : لا يزعجهم فحسب ٠ وانما يزيل الثابت من تحت أقدامهم ، ويتركهم بلا سند فى حياتهم ٠

وفى تعبيرهم عن حقدهم عليه كانوا يصفونه بما يبعده عن أن يكون واقعيا ، أو معبرا عن الحق فى ذاته تعبيرا صادقا ٠ فوصفهم اياه ، بالكهانة ، أو بالجنون ، أو بأنه شاعر : اعلان منهم عن عدم واقعيته ، وعدم صدقه فيما يقول ٠

---

(١) النمل : ٧٦ ــ ٧٩

والماديون المعاصرون ـ وبالأخص الماركسيون ـ لا يحقدون فحسب على صاحب الرسالة عليه السلام • وانما يتناولونه بأوصاف الخداع ، والتلبيس ، والأكاذيب •

* * *

وما يطلبه القرآن بالأمس من الرسول عليه السلام فى رده على الجاهليين وقت الرسالة : وهو الاعراض عن حماقاتهم •• وعدم اتباعهم فى متاهاتهم •• وتوفير الوقت والجهد لدعوته ـ يطلب اليوم من المؤمنين برسالته فى ردهم على الماديين أو الجاهليين المعاصرين •

ان عرض الدعوة الاسلامية ، والاستمرار فيه : عمل ايجابى يحتاجه المسلمون اليوم،بجانب احتياجهم الى نقض المادية المعاصرة• ان المسلمين بحاجة الى معرفة المنهج الاسلامى فى السلوك •• وبناء المجتمع وترابطه •• ونظام حكمه •• وسياسة دولته ، كمواجهة أيضا للرد على الجاهلية أو المادية المعاصرة •

ان كتاب الله اذ يتضمن فى وحيه المكى : مواجهة الجاهلية بالأمس ، فهو يتضمن فى وحيه المدنى : بناء المجتمع الانسانى ، وأسس العلاقات بين الأفراد فيه ، وموقف الرسالة الالهية فى القرآن، من تزييف الرسالة السابقة عليه • وكتاب الله ككل يدعونا الى المواجهة ، والبناء ، معا • يدعونا الى مواجهة الباطل وهو الاتجاه الجاهلى أو المادى • ويدعونا أيضا الى البناء على أساس المستوى الانسانى الفاضل • وهو ذلك المستوى الذى يجب أن يسود المستوى المادى فى هذه الحياة •

وما أقصده أن لا يستنفد رد المادية المعاصرة : الجهد والوقت الذى يجب أن يبذل فى سبيل الدعوة الى الاسلام •• وانما مع رد

المـادية يكون توضيح الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع ، ويتكون منها السلوك الانسانى الكريم ٠

ما يستخلص من الموازنة :

وبالموازنة هنا بين جاهلية اليوم وجاهلية الأمس ، أو بين مادية اليوم ومادية الأمس يتأكد لدى المسلمين والمؤمنين بالقرآن :

أن خصائص الجاهلية ـ والجاهلية هى التعبير القرآنى ـ ليست عهدا ، ولا أشخاصا معينين وجدوا فى زمن معين ٠ وانما هى صفات أو ظواهر فردية واجتماعية ، تعود الى المادية فى سماتها ، وفى طغيانها ، وان حملها أشخاص معينون أو جيل من الأجيال فى زمن من الأزمان ٠

وبوضع الجاهلية أمام الدعوة الاسلامية يتجلى : أن الدعوة الاسلامية دعوة ، ومنهج ، وسعى مستمر ، نحو تحول الانسان ، فردا وجماعة ، فى الاعتقاد والسلوك ، والمعاملة الى مستوى يليق بالانسان المكرم عند الله ٠ وهو ذلك المستوى الذى يقوم على الترابط بين الأفراد على أساس من القيم الانسانية العليا ، وليس على أساس الأنانية والمنفعية ، أو على أساس تأليه الاقتصاد والمـال ، والقوة المـادية ٠

وبمواجهة الوحى المكى لابراز خصائص الجاهلية ، أو المادية، ونقض هذه الخصائص ، وتنفير الناس منها ، ودعوتهم الى طرح العادات والتقاليد التى تعبر عنها ، والى تكوين عادات أخرى ، وتقاليد أخرى ، تمثل المستوى الانسانى الكريم : يقدم القرآن الكريم للبشرية الانذار من مخاطر المادية ، وفى الوقت نفسه يقدم الطريق الى تلافى هذه الأخطار والتخلص منها ٠ وهو طريق الايمان بالله وحده٠٠ طريق عدم الشرك بالله ٠

والوحى المكى يقرأه المسلم ويستعين به على أن يتخلص من آثار المادية أو الجاهلية ، ويصيغ من ذاته انسانا لا يطغى بالمال، أو بالقوة • وانما يسخر المال والقوة فى سبيل المصلحة العامة ، والوجود الانسانى المشترك بين الجميع •

ان الوحى المكى يمكن أن يطلق عليه : « ضد المادية » • والمادية سلوك •• واعتقاد •• وتصور ، ولا تخرج عن الأنانية ، والمنفعة.

ولذا : المذهب المادى ضد الاسلام •

والمنفعية ضد الاسلام •

والاسلام : رسالة المستوى الفاضل فى الانسانية : فى علاقات الأفراد والمجتمعات • ويوضحها الوحى المدنى • بينما الوحى المكى يكشف عن ضد هذا المستوى ، وهو الجاهلية •

والمادية قد توجد مع حضارة مادية • ولكن لا توجد اطلاقا مع حضارة انسانية •

والاسلام يوجد ان وجدت الحضارة الانسانية • كما قد يوجد مع عدم وجود حضارة مادية •

حضارتان : مادية •• وانسانية •• ويمكن أن توجدا معا ، ان استخدم كتاب الله فى العدل والهداية •• واستخدم الحديد فى القوة والمنافع الدنيوية العديدة ، تطبيقا لقوله تعالى :

« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات

« وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط

« وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » (١) ٠

وخصمان الى يوم الدين : اسلام ٠٠ ومادية ٠٠ فالاسلام حركة انتقال الى سمو ٠٠ والمادية حركة ارتداد الى دنو ٠

والطعن فى الوحى المكى سبيل الى التستر على الجاهلية أو المادية ، ودعوة غير مباشرة لرواجها ٠

فى القرآن وحده خلاص البشرية ، وسعادتها فى أفرادها ومجتمعاتها ٠

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » (٢) ٠٠

* * *

(١) الحديد : ٢٥   (٢) الأحزاب : ٤

محتويات الكتاب

